حدثان يتجاذبان المؤتمر الدولي
«الحجارة» والتحرك الأميركي

من الصعوبة بمكان اصدار احكام نهائية على ما تعجّ به ساحة الشرق الاوسط ، بعد الانتفاضة الفلسطينية في الارض المحتلة، من مبادرات ومقترحات دولية للسلام. الا ان محاولتنا، هنا، لا بد ان تسعى الى ضرورة الوصول الى استنتاجات (أو على الاقل، الى تحديد ملامح) عن حقبة سريعة التحول، معقدة الدلالات.

ومن الخطأ، فعلاً، الاعتقاد بأن ذلك غير صحيح، بالنسبة الى رصد وقائع من وزن ما يجري داخل الارض المحتلة.

لا بد من الاقرار، بادىء ذي بدء، ان عقدين من الاستقرار النسبي في أوضاع المنطقة توشك ان تطوى صفحتها. بل لنتجاسر ونقول ان ميزان القوى الدولي، الذي سمح، ولا شك، خلال العقدين المنصرمين، بنشوء اقطاب اقليمية، هو، اليوم، ونحن نخط هذه الاسطر، في تبدل عميق، وربما جذري. أما السمات الدولية الجوهرية لهذا التبدل، فيمكن لنا ايجازها بالآتي:

أولاً: ان المبادرات الاميركية التي حملها مبعوثون اميركيون رسميون الى بعض عواصم المنطقة، هي مبادرات لم تعلن بصفة رسمية، أو على شكل مشروع متكامل البنود والخطوات؛ بل حرص المسؤولون الاميركيون على ان يضفوا عليها قدراً من السرية والضبابية، وان يقدموها الى الاطراف المعنية بالنزاع على شكل اكسير، هو مزيج من الافكار والمقترحات القابلة للنقاش، والأخذ والرد، على أمل ان تؤدي تلك المباحثات التي تجرى بطريقة نصف سرية ونصف علنية في التوصل الى اتفاق لتحريك عملية السلام، بصورة مرضية، تكفل، في نهاية الأمر، عقد المؤتمر الدولي للسلام، ودخول الاطراف المتنازعة في مفاوضات مباشرة، بعد ان تكون الاوضاع في الضفة الغربية وقطاع غزة قد هدأت؛ وبعد ان تكون اسرائيل استعادت بعضاً من توازنها المفقود في الداخل والخارج. ويبدو ان سرعة التحرك الدبلوماسي الاميركي التي كانت مفاجئة للبعض، ان دلّت على شيء فعلى ان واشنطن استطاعت، عبر سفيرها في تل ـ أبيب، توماس بيكرينغ، وقنصلها العام في القدس، موريس درايبر، ان تستوعب أهمية الاحداث، وتحاول التكيّف مع الوضع الجديد.

ثانياً: تعامل الاتحاد السوفياتي مع الانتفاضة الفلسطينية كبديل لحرب عربية ـ اسرائيلية؛ فهي، من جهة، زادت في سخونة الوضع في المنطقة؛ وهي، من جهة أخرى، أتاحت، مرحلياً على الاقل، امكانيات سوفياتية أوسع في المنطقة، نتيجة انصباب الانتقادات الفلسطينية والعربية على واشنطن. وضمن هذين الحدين، يقع الاستخدام السوفياتي الامثل لورقة الانتفاضة، التي باتت بمثابة الرئة التي تتنفس منها موسكو، سواء في المنظمة الدولية (عبر مبادرتها بالدعوة الى عقد المؤتمر الدولي)؛ أو بزيادة فقدان واشنطن لمصداقيتها في المنطقة.

ثالثاً: أياً كان عمق العلاقات بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، فان احداً لا يستطيع ان ينفي حقيقة ان لكلا الطرفين مصالح مستقلة في الشرق الاوسط، بل ومتناقضة في كثير من الاحيان. واستناداً الى تقويم المرحلة الحالية، يمكن القول ان هناك تقدماً ملحوظاً في الموقف الاوروبي، من زاوية انه خلق، ودعم، مناخاً سياسياً أفضل مما كان سائداً، حتى يومنا هذا، بما يسمى بـ «السياسة المتوازنة للجماعة الاوروبية في الشرق الاوسط». ففي عملية البحث عن الجسور ما بين واشنطن وتل ـ أبيب، وما بين موسكو والمطالب العربية،